اهتزاز رؤية الرصافي للعلم والتعليم من منظور الدين والتراث

أ.م.د. عبد الرزاق كريم خلف
جامعة بغداد/كلية الفنون الجميلة

المقدمة

شغل الرصافي في عصره ومابعده. وكان مدرسة تجلى فيها الكثير من المبادئ والآراء الصالحة والطالحة ومجموعة من المواقف المتناقضة والحسنة ومع هذا فهو علم من أعلام الشعر العراقي في العصر الحديث. وجوانب شعره وحياته ظلت لعقود طويلة موضوعاً لدراسات وأطاريح جامعية كثيرة وكتب عن شعره الكثير الكثير من البحوث ولكن مع هذا يبقى ديوانه معيناً ثراً لدراسات لاتنتهي لسبب وجيه وهي ان الدراسات الأدبية لايمكن حصرها وتقنينها أو القول بانتهائها هنا أو هناك فكل ينظر إلى الموضوع الذي يبحثه من وجهة نظر معينة قابلة للقبول والرفض وهذا مايميز الدراسات الأدبية عن العلمية الصرفة التي قد يستنفذ فيها الابداع عند البلوغ لدرجة معينة في بعض موضوعاتها.

ومن موضوعات شعر الرصافي التي عني بها الباحثون موضوع (العلم والتعليم) وهذه المفردات نالت أهمية خاصة لدى الشاعر وكانت محوراً من المحاور المهمة التي دار شعره عليها. ونحن إذ ندرسها هنا لاندرسها من خلال الزاوية التي بحثها الكثير من الباحثين أي ضمن إطار الشعر الإصلاحي للشاعر وإنما نراها من خلال وجهة نظر جديدة. هذه النظرة تنطلق من تحليل هذا النوع من الشعر عن الشاعر من خلال رؤيته للدين والتراث أو بعبارة أخرى أثر الدين والتراث في رؤية الرصافي للعلم والتعليم.

ومن هنا كان لابد لنا من استخراج شعر الشاعر من خلال ديوانه الضخم والمتعلق بموضوع العلم والتعليم وبيان تأثير رؤية الرصافي لهذه الدعوة من خلال تجاذبها أو تنافرها مع موضوعي الدين والتراث. ومن هنا فقد شغل البحث عدة

موضوعات أهمها التمهيد الذي حاولنا فيه باختصار إيضاح الوضع التعليمي وحالته زمن الشاعر وهي أرضية وان بدت كلاسيكية في تناولها إلا انها تبدو مهمة لإيضاح مدى الواقع التعليمي والعلمي ابان نهاية القرن التاسع عشر والربع الأول للقرن العشرين. ثم يأتي مبحث الدين والتراث وعلاقتها بالدعوة إلى العلم والتعلم عند الشاعر ليأخذ هذا المبحث الحيز الرئيس من البحث وفيه تأخذ رؤيته وجهين ربما يكونان متناقضين أحدهما يكون فيه الدين والتراث محفزاً للعلم والتعلم والأخرى تجد فيها شذرات في ضرورة عدم الالتفات إلى مايعيق مسيرة العلم والتعلم وان كان صادراً كما يرى من جوانب دينية أو تراثية كعوامل شد وإعاقة لمسيرة العلم. أمّا المبحث الآخر فقد كان وكده بيان تعليم المرأة وعلاقة الدعوة لتعليمها بموضوع الدين والتراث أيضاً، نرجو من الله الموفقية والسداد.

التمهيد: حالة العلم والتعلم زمن الرصافي

حرص العثمانيون على تضييق نطاق التعليم وإبقاء المجتمع العراقي متأخراً على الرغم من غطائهم الديني والذي تفرض واجباته الإعلاء من قدر العلم لأنه (يرفع من قدر الإنسان وينمي عقله ويجعله أكثر خبرة بالحياة)[١]. ولم نجد من الولاة من اهتم لهذا الموضوع سوى شذرات مثلها مدحت باشا أو داود باشا وأهملت حالة العلم والتعليم حتى ان الدولة تدفع للبواب ٥٠٠ قرشاً وللعلم ٢٠٠ عرشاً للبواب)[٢]. أمّا المدارس القليلة فقد كان (نظام التعليم التركي فيها على الطريقة الفرنسية والتي تتميز بالمركزية والنظام الصارم)[٣]. مستهدفين بذلك الطاعة العمياء مما جعل هذه المدارس (وسائل لتحقيق هدفهم السياسي الذي ينطوي على تكوين امبراطورية واحدة

---

[١] د. محمد أسعد طلس: التربية والتعليم في الإسلام: ٤٥.

[٢] د. يوسف عز الدين: الشعر العراقي الحديث: ١٣.

[٣] د. خالد الهاشمي: تجديد مناهج إعداد المعلمين: ٧٣.

تحت خليفة واحد وأرادوا من تلك المدارس أن تضمن الولاء والطاعة للخلافة في الاستانة)[١]. وانتشر نظام الكتاتيب كوسيلة للتعليم وكانت (الكتاتيب المرحلة الدراسية الوحيدة لتعليم الصبايا في العهد العثماني)[٢]. وهناك وسيلة أخرى وهي الجوامع أو البيوت وقد أفاد الرصافي من هذه الوسيلة حيث (انتسب إلى مدرسة شيخة محمود شكري الالوسي)[٣]. وشأنها شأن بقية منافذ التعليم فقد كانت هذه (الجوامع والمدارس والربط والتكايا يقتصر التدريس فيها على شؤون الدين. وما يتصل به من علوم. وقد (حرم على الطلبة درس المهم في تاريخ بلادهم وشوهت جغرافية البلاد العثمانية وخرائطها وحذف وبدل في الاسماء.. وحضر تعليم بل وقراءة العلوم الفلسفية والاجتماعية ومنع الأساتذة من القاء أي شرح مقيد على الطلبة)[٤]. أضف إلى ذلك تدريس المواد باللغة التركية في المدارس القليلة. وجاء الانكليز محتلين وغازين ولم يكونوا أحسن حالاً من سابقيهم الاتراك ونال الاهمال ما نال من الجانب التعليمي فعدد المدارس (ضئيل ثم إن أكثريتها مركزة في المدن أمّا القرى والأرياف فهي محرومة من التعليم)[٥]. أمّا المدارس الثانوية فلم يكن لها نصيب في الاهتمام وذلك لمنع العراقيين من الوصول إلى التعليم العالي فقد بلغ (عدد المدارس الثانوية عام ١٩٢٥ خمسة مدارس تعلم ٥٨٣ تلميذاً)[٦]. وشأن الانكليز في خبثهم ومكرهم معروف ومن هنا فقد شجعوا نوعاً من التعليم تقوم به المدارس تنتمي إلى الطوائف المسيحية تلقى رعاية خاصة وكان الهدف من إنشائها شق صفوف الشعب وتفرقته

---

[١] المصدر نفسه: ٧٣.

[٢] عبد الرزاق الهلالي: تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني: ٤٢.

[٣] مصطفى علي: مقدمة ديوان الرصافي: ٣.

[٤] سليمان البستاني: عبرة وذكرى: ١٠٥.

[٥] د. يوسف عز الدين: الشعر العراقي الحديث: ٢٣٨.

[٦] د. محمد جواد رضا: التعليم الثانوي: ١٠٦.

فقد (أفسحت حكومة الاحتلال المجال أمام المدارس الطائفية وعززتها وأغدقت عليها بل أعطت هذه المدارس الامتيازات فوق المساعدات ما لم تكن تحلم به)[١].

وعاش الرصافي ضمن هذا الجو التعليمي الضيق حيث لم يكن العثمانيون مهتمين بنشر العلم أو المدارس[٢] حيث كانوا (قوماً عاجزين عن قيادة التقدم والنهوض... وبقي العراق محروماً من التجدد واقتباس الحضارة)[٣]. كذا الحال زمن الانكليز وهي الفترة التي عاصرها الرصافي أيضاً حيث (كان عدد المدارس الاولية الابتدائية سن ٩٢٠-١٩٢١ (٨٨) مدرسة[٤].

الدعوة إلى العلم والتعليم عند الرصافي:

في وسط هذا الجو الثقافي والتعليمي الضيق عاش الرصافي، وشكل هذا الوضع موضوعاً جوهرياً لشعراء الربع الاول من القرن العشرين حيث كان موضوع العلم الدعوة اليه وأهمية يقف على رأس أوليات شعرهم الاصلاحي، وفيما يتعلق بالرصافي فإن هناك أسباب أدت إلى اندفاعه في دعوته للعلم والتعليم منها تفكيره الذي جاوز زمنه وعقليته المتفتحة وكان ينطلق من منطلقات عصرية آنذاك وهمه إجلاء العقول مما تترتب عليها من تراكمات ماضٍ سحيق قرون تخلف. فهو يجد العلم طريقاً إلى العلا يقول:

لايبلغ المرء منتهى اربه إلا بعلم يجد في طلبه
فأو إلى ظله تعش رغداً عيشاً أميناً من سوء منقلبه

---

[١] أمين الريحاني: قلب العراق: ٢١٨.

[٢] بدوي طبانة: معروف الرصافي: ١٥٩.

[٣] غانم سعيد العبيدي: التعليم الأهلي في العراق: ٢٨.

[٤] د. خالد الهاشمي: تجديد مناهج اعداد المعلمين: ٧٤.

ان للعلـــم فـــي العـــلا فلكـــا كـــل المعـــالي تـــدور فـــي قطبـــه[1]

وماتركتـه رحلاتـه الكثيـرة ومشـاهداته لمعاهـد العلـم سـواء فـي عاصـمة بنـي عثمان أم في الشام أو القدس وبيروت ومصر فدعا إلى العلم طريقاً للتقدم.

نحـــن قـــوم نـــرى المفـــاخر إلا مـــن طريـــق العلـــوم ثوبـــاً معـــارا
ماقصـــدنا لبســـنا الســـيف إلا رد ليـــل الجهـــل المميـــت نهـــارا[2]

وكان لطول فترة اشتغال الرصـافي بالتدريس معلماً ومفتشاً للمدارس ماأكسبه خبرة دون غيره بحقيقة أهمية العلم في التقدم أضف إلى ذلك اطلاعه على ماوصل اليه العلم والتعليم في العراق مقارنة بغيره من البلدان وبهذا فقد كرس الرصـافي جهده للـدعوة إلـى العلـم والتعلـيم ونحسـب انهـا القيمـة الرئيسـية التـي جـال فيهـا شـعره الاجتماعي.

الدين والتراث وعلاقتهما بالدعوة إلى العلم والتعليم في شعر الرصافي:

تميزت فترة مابعد منتصف القرن التاسع عشر بحدة الصراعات والمناظرات على موضوع كان لابد ان يثار في فترة تململ الامة العربية لمحاولة النهوض من جديد من سبات طال قرون إلا وهو موضوع علاقة الدين بالعلوم. لاسيما بأن العرب بدأوا يصحون على أصوات المدينة الحديثة وهي تهدر وتدق أبوابهم مبتدئة بحملة نابليون وبعض ومضات العلوم التي تسربت اليهم من مسارب متعددة ومعروفة لسنا هنا بصدد ذكرها. وبدأ العرب يشعرون بأن العلم آت إليهم، بلا ريب فهم أصحابه وقادته لكن قرون التخلف تركت آثارها عليهم وكان لابد من صحوة تعيد لهم ماضيهم المجيد، ويلاحظ هنا كون الغربيون هم الذين أثاروا بآرائهم الضالة مسألة علاقة الاسلام بالعلوم وهدفهم الاساس تشويه صورة الانسان العربي وصولاً إلى احباط نهضته وابقائه رهين التخلف.

---

[1] ديوان الرصافي، ج٢: ١٨٢.

[2] الديوان، ج٢: ١٩٥.

وصدرت الكتب التي ردت ودحضت دعاوي مفكري الغرب ممن اهتموا بمسألة تخلف الشرق الإسلامي والذين عزوا هذا التخلف إلى قضية موقف الدين ازاء العلوم والافكار الجديدة، فتصدى لهم (محمد عبده) في كتبه واستاذه (جمال الدين الأفغاني). وظهرت مناظرات بين (محمد عبده) و(هانوتو) وزير خارجية فرنسا آنذاك رداً على آراء حاول فيها الأخير النيل والدس على الإسلام بوصفه دين يقف امام تطور وتقدم المدينة.

كذلك ماكان يدعو اليه الفيلسوف الفرنسي المسيو (رينان) والذي يقول في معرض كلامه عن تساهل المذاهب الدينية مع العلم (على اني أخشى ان يثبت الدين الإسلامي وحده في وجه هذا التسامح العام في العقائد). وما رد عليه محمد عبده من ارجاع ذلك التخلف ليس إلى الدين وانما هي علة عرضت على المسلمين عندما دخلت قلوبهم عقائد أخرى ساكنت عقيدة الإسلام في افئدتهم)[1].

هذه القضية التي شغلت الفكر العربي عشرات السنين في ان تجد صداها عند شاعر يعد نفسه مصلحاً وحاملاً لهموم شعبه فكان ان دخل تيار هذه المناقشات ازاء محمد عبده والافغاني والكواكب.

علينا في البدء القول بأن الرصافي قد ثبت حقيقة واضحة في شعره وهي ان حجر عثرة امام التقدم العلمي ونادى بهذه الحقيقة في كثير من قصائده يقول:

في الاسلام ظلماً بأنه يصد ذويه عن طريق التقدم
ذا حقا فكيف تقدمت أوائله في عهدها المتقدم
في الإسلام إلا فريضة وهل أمة سادت بغير التعلم

الرصافي غيره من المفكرين العرب في رد التهمة والافتراء على الإسلام كما دافع كبار المصلحين عنها إلا انه يستخدم قريحته الشعرية في الرد مقارنة حتى لتجد قصائده تتحول إلى فكر وقد نظم شعراً، انه شعر يستخدم الحجج، يقول:

من جاروا علينا بحكمهم رويداً فقد فارقتم كل مأثم

---

[1] محمد عبده: الاسلام دين العلم والمدنية: ١٣٠.

شـــمس الحقيقـــة انهـــا لأظهـر مـن هـذا الحـديث المتـرجم
كنـــتم ســـافلين فلـــم نكـــن لنبـــدي الـــيكم جفـــوة المـــتهكم
الحســـــنى أوان جـــــدالكم وتلـــك لعمـــري شـــيمة المـــتحلم

الرصافي من خلال شعره كون العلم هبة الهية رعاها الله سبحانه وقرها حيث ان الله سبحانه وتعالى يميز بين العالم والجاهل يقول جل في علاه (هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون). فالعلم نور كما يراه الرصافي:

جاهـــل مـــن قبـــل الممـــات ميـــت يمـــرح مـــابين البيـــوت
يعلـــم فـــي هـــذي الحيـــاة ان رب العلـــم حـــي لايمـــوت
للعلـــــم رب الكائنـــــات بـــالعلا فهـــو زمـــام الملكـــوت
جعـــل قضـــى بالعطـــب فهـــو فـــي النـــاس دليـــل التلـــف
شـــئت علـــم الســـبب هـــل يكـــون النـــور مثـــل الســـدف

ومن هذه الأمثلة التي ذكرت نلاحظ تلك السمة الواضحة عند الشاعر في تثبيته لحقيقة واضحة لا لبس فيها وهي ان العلم والاسلام لايتناقضان ولايمكن للدين ان يكون حاجزاً امام التقدم العلمي.

وهذا مما يتطابق مع توظيفه للتراث رموزاً وحوادثاً وعبر فقد تناوله الشاعر من رؤية كون العرب وما تركوه من فخر وعز وحضارة لايمكن ان يقف حاجزاً امام التطور العلمي وإنما محفزاً أساسياً للتقدم بل ان استنهاض الهمم نحو العلا ونحو التقدم يمر عند الشاعر بذكر للتراث العربي الذي يجب ان يكون كما يرى نبراساً نحو التطور العلمي يقول:

هـل اتـاك الـدهر فيمـا قـد اتـى بحـديث العـرب فـي الانـدلس
حيـث بـالعزم امـاطوا العنتـا وبنـور العلـم ليـل الهـوس
سـل ربـا (بغـداد) عمـا قـد قضـى لبنـي العبـاس فـي تلـك الـديار
واسـألت الشـام عمـا قـد اضـأ للمعـاويين فيهـا مـن فخـار

كـم تـرى للمجـد سـيفاً منتضـى كـم تـرى للعلـم فيهـا مـن منـار[1]

ويتوضح لنا من خلال الابيات السابقة كيف ان الشاعر قد جعل المفردات التراثية ركيزة له في عملية استنهاض الامة نحو العلم والمعرفة، وقد تكون مفردات التراث حاضرة في معرض المحاججة أو النقاش كما يذكر هنا في بعض أبياته محاججاً أعداء الاسلام يقول:

فلمـا اسـتدار الـدهر بـالأمر نحـوكم كشـفتم لنـا عـن منظـر مـتجهم
فـلا تـأمنوا الايـام ان صـروفها كمـا هـي إذ أودت (بعـاد) و(جـرهم)[2]

فاستخدام المفردات التراثية وشواخص التراث المجيدة كأدلة في الشعر واضح لدى الرصافي بل قد يكون الرمز الديني حافزاً في شعره ضمن هذا الاتجاه حيث تنطلق فكرة العلم لديه في بعض قصائده من منطلق تراثي يبين فيه أهمية العلم بل اننا قد نجد اسناده لرأيه في بعض المواقف يستند على فكرة دينية يقول:

حبـذا العلـم يكسـب المـرء عـزاً ويقيـه فـي عيشـه اعـوازه
انمـا العلـم مـن معـاجز (عيسـى) كـم جهـول احيـاه وهـو جنـازة[3]

وهو في طرحه لقضية تحرير العلم وابعاده عن جمود الفكر المتعلق بأهداب آراء تشده إلى الوراء يختزل فكرته هذه من التراث وما فيه من شواخص متجلية باقية للعيان تؤكد كون صروح العلم قد شيدت في هذه البلاد قبل قرون عديدة.

وأطـلال علـم لاتـزال شواخصـاً تـذكر بالعهـد القـديم وتشـهد
أراهـا فـأبكى وهـي رهـن يـد البلـى بـدمع كمـا ارفـض الجمـان المنضـد[4]

---

[1] الديوان، ج٢: ١٧٠.
[2] الديوان، ج٢: ٣٠.
[3] الديوان، ج٢: ٨٥.
[4] الديوان، ج٢: ١٩٠.

فالتراث هنا وان جلب هماً والماً للشاعر نتيجة لمقارنته التي يقوم بها بين حاضر مؤلم وبين ماكان عليه سابقاً إلا ان هذا التناول يعد اليه تعبيرية استخدمها شعراء القرن الماضي متناولين فيها مقارنة الماضي بالحاضر.

وبالرغم من تقريرنا لهذه الحقائق والتي يبدو فيها الرصافي مستنداً إلى التاريخ والدين في إثبات ودعم برأيه اتجاه العلم والتعليم نجد في المقابل ومن خلال التدقيق في شعره، ملمحاً قد يبدو متناقضاً مع ماذكرناه حيث يبرز لنا التراث أو الدين كما يتصورهما عائقين امام التقدم العلمي أو عوامل جذب سلبية أمام التطور أو التعلم. ومن ضمن مايذكر في هذا الاتجاه دعوة الرصافي لعدم التمسك بأهداب الماضي لمجرد كونها تحمل مجداً تليداً يقول:

فلو أنشدتنا في الفخر شعراً تذكرنا به العهد البعيد
تذكرنا الاوائل كيف سادوا وكيف تبوءوا الشرف المديدا[1]

ويستمر الشاعر في مدح أمجاد الأمة ثم ينعطف انعطافة واضحة في نفس القصيدة:

أرى مستقبل الايام أولى بمطمح من يحاول ان يسودا
فما بلغ المقاصد غير ساع يردد في غدٍ نظراً سديدا
فوجه وجه عزمك نحو آتٍ ولاتلفت إلى الماضيين جيدا
تقدم ايها العربي شوطاً فإن أمامك العيش الرغيدا
واسس في بنائك كل مجدٍ طريف واترك المجد التليدا
وخير الناس ذو حسب قديمٍ اقام لنفسه حسباً جديدا[2]

[1] الديوان، ج٢: ١٠-١٣.

[2] الديوان، ج٢: ١٠-١٣.

وهنا يمكن ملاحظة كون الرصافي لم يرد في أبياته السالفة الحط من قيمة التراث وتقليل شأنه اتجاه مسائل التقدم والعلم وغيرها من مسائل الفكر المطروحة في تلك الحقبة بقدر ما يحاول تقرير كون المستقبل اولى بالذين يعملون ويتقدمون ليضيفوا إلى التراث شيئاً جديداً ودماء جديدة.

وتميز الرصافي بميزة الجرأة في طرح أفكاره من خلال الشعر لاسيما إيمانه الكبير بحرية الفكر ووجوب تحرير العلم وجعله خالصاً لنفسه دون تدخل عوامل خارجية تتواتر فيه:

فيا قومنا ان العلوم تجددت فإن كنتم تهوونها فتجددوا
وخلو جمود العقل في أمر دينكم فإن جمود العقل للدين مفسدٌ[1]

فالعلم مرتكز مهم للتجديد في النهضة وإعلاء صرح الحضارة ومن ثوابت جعل العلم فعالاً اطلاق حريته وعدم تقيدها بأي عامل جذب إلى الوراء. وكانت نظراته هذه في حرية العلم ثابتة حتى وان كانت مدعاة لنتائج خطيرة كما فعل في تأييده لطه حسين وعلي عبد الرزاق في قصيدة (في حفلة شوقي) وربما تكون هذه القصيدة احدى المؤشرات في تناقض الرجل لنظراته للقضايا الفكرية، يقول:

إلا ان هذا الشعر ليس بطائل إذا كان مما يبلغ العلم قاصرا
كما ان هذا العلم ليس بنافع إذا لم تكن فيه النفوس حرائرا
وتكريم رب الشعر ليس بمفخر لمن كان عن حرية الفكر جائرا[2]

فبعد أن كان الرصافي مدافعاً عنيداً عن أفكار (محمد عبده) واستاذه (الأفغاني) وغيرهم من رواد النهضة الذين تجردوا للرد على الدعوات التي حاولت المماس بالإسلام نجده في الابيات السابقة يبدأ في تمجيد حرية العلم وان كانت على حساب مبادئ وقيم وأسس تراثية أو دينية راسخة يقول ضمن ذات القصيدة:

---

[1] الديوان، ج٢: ٨٤.

[2] الديوان، ج٢: ١٠٠.

ولكنني قد أنظر الحفلة التي تقام له اليوم في مصر ساخرا
إذا احتفلت مصر بشوقي فمالها تقيم على الاحرار في العلم حاجرا
فقد أسمعتنا ضجة أمطرت بها (علياً) و(طه) حاصباً متطايرا
فما بال هذا عد في مصر مارقاً وما بال هذا عد في مصر كافرا[1]

والمذكوران هنا هما الدكتور طه حسين وعلي عبد الرزاق، حيث أثار الأول قضية التشكيك والانتحال في الشعر الجاهلي تلك القضية التي شغلت الباحثين والمفكرين ورجال الدين كثيراً لما لها من مساس مباشر بقضية التراث والتي أثارها في كتابه (في الأدب الجاهلي)، أمّا الثاني، علي عبد الرزاق فهو صاحب كتاب (الاسلام واصول الحكم) الذي ألفه في المنصورة في أبريل سنة ١٩٢٥ متناولاً فيه أموراً لم يكن طرحها آنذاك مسألة يسيرة وفيها موضوعات عن الخلافة وهل ان النبي (ص) ملكاً أم لا وهل جمع بين السلطتين الدينية والتنفيذية وهو ماخالف به الانبياء والرسل الذين سبقوه كذلك ان الدين الإسلامي دين تسامح فكيف ان الرسول (ص) نشر دينه وسلطته بالقوة[2]. ومع كل ماطرح في هذين الكتابين وما أثاره من ردود أفعال جعلت الدكتور طه حسين يتراجع عن آرائه إلا اننا نجد الرصافي داعماً لهما متشكياً من ان ما لاقاه يعد حجر عثرة امام حرية العلم وتقدمه.

ويمكن ملاحظة إشاراته الدقيقة وفي ضمن القصيدة سالفة الذكر حيث يعرض تلميحاً بالتراث يقول:

وتكريم رب الشعر ليس بمفخر لمن كان عن حرية الفكر جائرا
والا فعصر الجاهلية قبلنا له السبق في تكريم من كان شاعرا[3]

---

[1] الديوان، ج٢: ٩٩.

[2] ينظر: علي عبد الرزاق، الإسلام وأصول الحكم: ٤٨ ومابعدها.

[3] الديوان، ج٢: ١٠٠.

فتكريم الشعراء عرف تعارف عليه حتى المجتمع الجاهلي وهو لايدعو إلى الفخر إذا لم يتح للإنسان التعبير بحرية عن رأيه، ولكن أليس من الصحيح ان تكون هذه الحرية في إطارها الصحيح غير المعرض بالمعتقدات أو التراث.

لقد أحكمت نظرة الرصافي لحرية الفكر طوقها على أغلب ماكتبه من شعر متعلق بالعلم والتعليم وهي عنده من المبادئ التي لايحيد عنها يقول في قصيدة (في سبيل الحرية):

إذا كان في الاوطان للناس غاية فحرية الافكار غايتها الكبرى
فأوطانكم لن تستقل سياسة إذا أنتم لم تستقلوا بها فكرا
إذا السيف لم يعضده رأي محرر فلا تأملن من حدة ضربه بكرا
أحريتي اني اتخذتك قبلة أوجه وجهي كل يوم لها عشرا[1]

فإذا ماكان الانسان المسلم يوجه وجهه إلى القبلة خمسة مرات في اليوم فإن الرصافي اتخذ لنفسه قبلة يتوجه لها عشراً وهذه القبلة هي قبلة حرية الفكر وفي هذا البيت تعريض واضح بممارسة دينية يومية معروفة بل انه يكون أكثر جرأة في طرحه لفكرته هذه في بيت آخر يقول فيه:

وأمسك منها الركن مستسلما وفي ركنها استبدلت بالحجر الحجرا[2]

فمن ضمن تفانيه لهذه الحرية الفكرية والعلمية نجد الإشارة السابقة وهذه الإشارات يمكن التقاطها من خلال مفردات وصيغ يبثها في بعض أبياته مستخدماً

[1] الديوان، ج٢: ١٧.

[2] الديوان، ج٢: ١٧.

براعته الاسلوبية لاسيما الجناس الذي ساقه في البيت السابق فالشاعر استبدل في سبيل حريته (العقل) والذي أشار إليه بكلمة (الحجر) بكسر فسكون بالحجر الذي هو الحجر الأسود المعروف في الكعبة الشريفة وهو تعريض واضح برمز ديني مقدس.

تعليم المرأة وعلاقته بالدين والتراث:

ان دعوة الرصافي للعلم واندفاعه لنشره لم تكن مقصورة على الرجال دون النساء بل يمكن القول انه قد كرس الكثير من القصائد للدعوة لتحرير المرأة وتعليمها لان ذلك يكمل دور المجتمع حيث ان من (جملة مساعيه التي كافح من اجلها بعزم وثبات تحرير المرأة وإزالة ماطرأ على المجتمع العراقي من التقاليد البالية... وان المجتمع العراقي لايصلح طالما كانت المرأة العراقية حبيسة البيت جاهلة التعليم)[١]، وشارك الرصافي في حملته هذه في الكثير من المجلات العراقية التي تصدر في تلك الفترة حيث نشر على سبيل المثال قصيدته المعروفة (التربية والأمهات) في (مجلة ليلى) التي صدرت عام ١٩٢٣ والتي فيها:

هي الأخلاق تنبت كالنبات إذا سقيت بماء المكرمات[٢]

كذلك كان الرصافي خير عون للكتاب والصحافيين الذين يتناولون هذه القضية حيث عززوا مقالاتهم بقصائده الداعية لتحرير المرأة وتعليمها لاعطاء مقالهم قوة دافعة ومؤثرة في التلقي يقول محمد كامل السامرائي في مقالة له (فالأجدر بنا أن نسير جميعاً نحو غاية واحدة وهي إصلاح اخلاقها (أي امرأة) وذلك بتعليم فتياتنا العلوم والمعارف الصحيحة)[٣] ثم يستشهد بعد ذلك بمقطع من قصيدة للرصافي.

ويمكن ملاحظة كون الرصافة من أكثر شعراء العراق أبان النصف الأول من القرن الماضي مناقشة لقضية المرأة وعلاقة تأخرها من منطلق الدين والتراث، وهذا ماقاده

---

[١] خضر العباسي، تحرير المرأة العراقية بين شاعرين الزهاوي والرصافي: ٥٤.

[٢] مجلة ليلى: العدد ٥، شباط ١٩٢٤.

[٣] مجلة الزنبقة: العدد ٨، السنة الأولى، ١٩٢٣.

بالضرورة إلى التقلب بين نوعين من الآراء نوع يكون فيه الدين والموروث بشكل عام داعماً لآرائه وفكرته العامة ونوع يكون ذلك الموروث على نقيض من هذا.

فقد أرجع في بعض قصائده تأخر المرأة وعدم انطلاقها بالعلم والمعرفة إلى سوء فهم من قبل المجتمع أو القائمين عليه لدور المرأة حيث يصب جام غضبه في بعض شعره على (العلماء) ويصفهم بـ(أهل الجهل) لأنهم سبب في تأخر المرأة وتعليمها لأنهم لم يدركوا بشكل عميق مبادئ الدين يقول في قصيدة (المرأة في الشرق).

لقد غمطوا حق النساء فشددوا ... عليهن في حبسهن وطول ثواء
وقد الزموهن الحجاب وانكروا ... عليهن إلا خرجة بغطاء
واقبح جهل في بني الشرق انهم ... يسمون أهل الجهل بالعلماء
واكبر مظلوم هو العلم عندهم ... فقد يدعيه أجهل الجهلاء
لو اقتص رب العلم للعلم منهم ... لصب عليهم من سوط بلاء
لقد مزقوا أحكام كل ديانه ... وخاطوا لهم منها ثياب رياء[1]

فالملوم هنا هم العلماء الذين يتحكمون بمصائر الناس دون فهم دين لرأي الدين حول قضية التعليم والعلم بل ان هؤلاء العلماء هم من سيعاقب من قبل الله سبحانه وتعالى.

أمّا المقارنة التاريخية بين ماضي المرأة العربية المسلمة المجيد ودورها العلمي والاجتماعي المميز بين ماآلت إليه حالتها زمن الشاعر فقد كانت إحدى أدواته التي استخدمها في مناقشته لقضية علاقة تعليم المرأة بالتراث حيث يرى بأن الدين الإسلامي لم يقف عائقاً امام تعليم المرأة يقول مخاطباً إحدى رموز التراث:

أوم المؤمنين اليك نشكو ... مصيبتنا بجهل المؤمنات
فتلك مصيبة يا أم فيها ... نكاد نغص بالماء الفرات
تخذنا بعدك العادات ديناً ... فأشقى المسلمون المسلمات
وقالوا شرعة الإسلام تقضي ... بتفضيل الذين على اللواتي
لقد كذبوا على الإسلام كذباً ... تزول الشم منه مزلزلات
أليس العلم في الإسلام فرضا ... على أبنائه وعلى البنات[2]

كذلك استلهامه لمعطيات التراث من خلال المقارنة المعروفة بين ماهو غائب مضيء وما هو حاضر مزري مايذكره عن المرأة الآن وعنها في عصر الجاهلية يقول:

---

[1] الديوان، ج٢: ٣٣٥.

[2] الديوان، ج٢: ٣٥٣.

لـــئن وأدوا البنـــات فقـــد قبرنـــا جميـــع نســـاؤنا قبـــل الممـــات
حجبنـــاهن عـــن طلـــب المعـــالي فعشـــن بجهلهـــن مهتكـــات[1]

وتظهر براعة المقارنة هذه من خلال تعميق الهوة بين موقفين عميقين في التردي إذ ان وأد البنات عمل بشع أدانه الله سبحانه وعد من أقبح الأفعال في التراث الجاهلي يوازيه ويتجاوزه الان مايحدث زمن الشاعر من قبر النساء وهذا القبر هو حجبهن عن طلب المعالي والعلوم والتعلم الذي ولد الجهل والتخلف.

المصادر

١. أمين الريحاني: قلب العراق، بيروت، ١٩٥٧، ط١.
٢. بدوي طبانة: معروف الرصافي، مطبعة السعادة، ١٩٤٧.
٣. د. خالد الهاشمي: تجديد مناهج إعداد المعلمين، دار العلم للملايين، ١٩٤٦.
٤. خضر العباسي، تحرير المرأة العراقية بين شاعرين، دار المستنصرية.
٥. ديوان الرصافي، وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٧٤.
٦. سليمان البستاني: عبرة وذكرى، تحقيق خالد زيادة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٨.
٧. عبد الرزاق الهلالي: تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني إلى سنة ١٩١٧، ط١، ١٩٥٩.
٨. غانم سعيد العبيدي: التعليم الأهلي في العراق، ١٩٧٠.
٩. محمد أسعد طلس: التربية والتعليم في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٧.
١٠. د. محمد جواد رضا: التعليم الثانوي في العراق، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٦.
١١. محمد عبده: الاسلام دين العلم والمدنية، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٦.
١٢. مصطفى علي: ديوان الرصافي، وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٧٤.
١٣. د. يوسف عز الدين: الشعر العراقي الحديث، دار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.
١٤. د. يوسف عز الدين: شعراء العراق في القرن العشرين، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٦٩.

[1] الديوان، ج٢: ٢٥٦.